الدرس12: مقدمة عن تاريخ الدراسات اللسانية الغربية

تمهيد

اعتنى الإنسان باللغة منذ القدم كونها أداة تواصل تميزه عن غيره، فلو تصفّحنا التاريخ الحضاري لمختلف الأمم لوجدنا فصول هذا الاهتمام محفوظا كالهند واليونان والرومان وبلاد الرافدين والشّام وغيرها من الشعوب، لكن ما حدث في أوربا في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين كان بمثابة التحول الجذري في تاريخ الدراسات اللغوية، لتميز هذه الفترة باستخدام المناهج العلمية في دراسة اللغة، وظهرت مدارس لغوية جديدة تناهض وجهات النظر وآراء اللغويين التقليديين.

أوّلا: المدارس اللسانية الغربية

تعدّدت المدارس اللسانية الغربية الحديثة واختلفت توجّهاتها، فكانت: المدرسة البنيوية، والمدرسة الوظيفية، ومدرسة براغ، والمدرسة الإنجليزية، ومدرسة كوبنهاغن، والمدرسة الأمريكية.

1- من المدارس اللسانية الأوربية

أ-المدرسة البنيوية (مدرسة جنيف) (structuralisme) مع سوسير:

تهدف المدرسة اللسانية البنيوية إلى دراسة اللغة كموضوع في ذاتها ولذاتها أي إلى دراستها دراسة وصفية آنية، **وهي منهج يقوم على قواعد أساسية هي:**

-تحليل كلّ بناء إلى جزيئاته التي يتكون منها.

-تحديد زاوية تحليل وتركيب لكلّ بناء، وهذه تتمثل في الزاوية الإنسانية؛ وذلك لأنّ البنائية في جوهرها نزعة إنسانية تهدف إلى تطوير الأبنية الإنسانية المختلفة.

-اكتشاف الماهيات الكامنة خلف كل بناء، وهذه الماهيات تتمثل في العلاقات الموضوعية.

من أهم المبادئ التي استخلصها مؤسس البنيوية فردينان دي سوسير، ما يلي:

* التمييز بين الدراسة الوصفية للغة في بعدها الداخلي وبين الدراسة التاريخية.

*إن اللغة نظام من الإشارات التي تشير للمقصود بنية التبليغ والتخاطب والتواصل، وهذه الإشارات تتكون من:

***الدال**: وهو مجموعة الأصوات القابلة للتقطيع.

***المدلول:** وهو المفهوم أو المعنى الذي يشير للدال.

***التفريق بين اللغة والكلام؛** فاللغة حسب سوسير تسبق الكلام، وقد جرى تعريفها بأنها رصيد يُستودَع في الأشخاص الذين ينتمون إلى مجتمع واحد بفضل مباشرتهم للكلام، وهي نظام نحوي يوجد وجودًا تقديريًا في كل دماغ، وبفصلنا اللغة عن الكلام، نفصل في الوقت نفسه ما هو فردي عما هو اجتماعي، ما هو جوهري عما هو إضافي أو عرضي.

* **اللغة نظام ترتبط فيه جميع أجزائها ببعضها البعض،** وبفضل هذا النظام تستطيع اللغة أن تؤدي وظيفة التبليغ والتخاطب.

ب-**ا لمدرسة الوظيفية مدرسة (براغ) (fonctionnelle) مع ياكوبسن ومارتيني:**
يعتبر الوظيفيون أن دراسة اللغة هي البحث عن الوظائف التي تؤديها في المجتمع أثناء تواصل أفراده.1، **مبادئ المدرسة الوظيفية ما يأتي:**

* **الوظيفة :**فالباحث يسعى إلى الكشف عن القطع الصوتية التي تؤدي وظيفة داخل التركيب، أي أنه يبحث عن الوحدات التي يمكنها أن تغير المعنى كلما استبدلت بأخرى. إذن على الباحث أن يحصي مجموعة من الوحدات اللغوية ثم يرتبها من حيث الشبه والاختلاف، وبذلك تتضح له الفوارق التي تعكس قيمتها الذاتية أي وظيفتها، ومثال على ذلك: قال ..... الرجل/ سافر ..... الرجل /ذهب ..... الرجل .

ويمكننا أن نستخلص مما كتبه أندري مارتيني ثلاثة اتجاهات رئيسية ذات علاقات حميمة فيما بينها كما يلي:

-اتجاه الفونولوجيا (علم الأصوات العام) وتعتني بضبط الأصوات العامة ووصف صورها (الفونولوجيا الوصفية)؛

-اتجاه الفونولوجيا الزمنية (العلم بتطور الأصوات عبر الزمان)؛

-اتجاه اللسانيات العامة.

***التقطيع المزدوج:** وهو ينص على أن تحليل الوحدات اللغوية يتم على مستويين:

-التقطيع الأولي: الذي يتكون من الكلمات الدالة أي المونيمات، مثال: **أحضر الولد الكتاب: / أحضر / أل / ولد / أل / كتاب.**

التقطيع الثانوي: وهو يقوم بتحليل تلك الوحدات المستقلة ذات المحتوى الصوتي والدلالي إلى الفونيمات أي إلى أصغر الوحدات الصوتية المجردة من المعنى. وهذا المبدأ يمنح اللغة القدرة على التعبير عن اللامتناهي من الأفكار والمعاني المجردة بواسطة هذا العدد المحصور من الفونيمات، ما يؤسس مفهوم الاقتصاد اللغوي في اللسانيات.

***مدرسة براغ**

أعطت هذه المدرسة عنايتها المركزة للامتداد الاجتماعي للغة، كما ربطت بين الدراسة الآنية الوصفية في اللغة وبين الدراسة التطورية التعاقبية، **وقد تلخصت مبادئها على ما يلي:**[2]

-**تعد اللغة** في هذه المدرسة ذات طابع غائي وظيفي وهي نتاج النشاط الإنساني ووسيلة تعبير لتحقيق غاية مستعمل اللغة فيما يريد إيصاله والتعبير عنه.

- **ترى هذه المدرسة أن الوسيلة الناجحة التي تمكننا من الإحاطة بجوهر اللغة** وخصائصها، تكمن في التحليل الآلي الوصفي للظواهر اللغوية الحالية.

-اعتماد المنهج المقارن في البحث اللساني.

-**تمت دراسة جوانب النظام اللغوي وفق مستويات**: الدراسة الصوتية والدراسة الصرفية ودراسة البنى التركيبية.

ج-**المدرسة النَّسقية مدرسة (كوبنهاكن) (glossématique) مع هلمسليف:**

العالم اللساني الدانماركي لويس هلمسليف بكوبنهاجن هو الذي اخترع مفهوم غلوسيماتيك (glossématique)باشتقاقه من الإغريقية غلوسة يعني اللغة لتعيين النظرية المستخلصة من نظرية دي سوسير التي تجعل من اللغة غاية لذاتها لا وسيلة لتحقيق الغاية المقصودة بالكلام.

والغلوسيماتيك تقوم على النقد الحاد للسانيات التي سبقتها وحادت في نظرها عن مجال اللغة بانتصابها خارج الشبكة اللغوية واهتمامها بالإجراءات (غير اللسانية) التي تهدف إلى معرفة مصادرها الأولى ما قبل التاريخ وجوانبها الفيزيائية والظواهر الاجتماعية والأدبية والفلسفية. والنسقية تنتصب على العكس من ذلك داخل اللغة فهي تصدر منها وإليها ولا تخرج عن دائرة اللغة المنظور إليها على أنها حقل مغلق على نفسه وبنية لذاتها وهي تبحث عن المعطيات الثابتة التي تعتمد على الظواهر غير اللسانية، وهي تسعى إلى إبراز كل ما هو مشترك بين جميع اللغات البشرية، وتكون اللغة بسببه هي مهما تبدل الزمن وتغيرت الأحداث. وهكذا تختلف الغلوسيماتك عن النظرة الإنسانية، فمظاهر اللغة لا تبصر إلاّ مرة

واحدة ولا تتجدد مثل الظواهر الطبيعية بحيث يمكن دراستها دراسة علمية على العكس من هذه الظواهر اللسانية

ومن أهم مبادئ هذه المدرسة:

1- اللغة ليست مادة، وإنَّما هي صورة أو شكل.

2- جميع اللُّغات تشترك في أنها تُعبِّر عن محتوى.

3- يوضع لتحليل اللغة نظرية صورية رياضية تصدق على جميع اللغات.

4- تقوم على النقد الحاد للسانيات التي سبقتها وحادت في نظرها عن مجال اللغة بانتصابها خارج الشبكة اللغوية.

5- تقوم على النسقية التي تنصب على داخل اللغة، فهي تصدر منها وإليها ولا تخرج عن دائرة اللغة المنظور إليها على أنَّها حقل مغلق على نفسه وبنية لذاتها.

6- تسعى إلى إبراز كل ما هو مُشترك بين جميع اللغات البشرية، وتكون اللغة بسببه هي مهما تبدل الزمن وتغيرت الأحداث.

د- مدرسة السِّياق:

هي ما عُرف بمدرسة" فيرث :"يُعدُّ فيرث صاحب نظرية السِّياق، لما له من أثر كبير في صياغتها والتَّوسع في مُعالجتها، بحيث أصبحت على يديه نظرية لغوية مُتكاملة، قد تلتقي في بعض جوانبها مع آراء اللغويين القدماء، ولكنها دون شكٍّ تختلف عن تلك الآراء؛ من حيث المنهج والمصطلحات والأفكار

2-من المدارس اللسانية الأمريكية

أ- مدرسة سابير المتوفى عام 1933م:

ومن أهم مبادئ هذه المدرسة:

أولاً :فكرة النماذج اللغوية أنَّ كُلَّ إنسانٍ يحمل في داخله الملامح الأساسية لنظام لغته.

ثانيًا :فكرة العلاقة الوثيقة بين ثقافة شعب ما ولغته.

ثالثًا :اللغة نظام من الأصوات الإنسانية.

رابعًا: وضع من تصور جديد للفونيم.

ب- المدرسة التوزيعيةأو المدرسة السلوكية (distributionnelle) مع بلومفيلد

صاحب هذه المدرسة التي أنشئت حوالي 1930 بالولايات المتحدة هو بلومفيلد وضعها كمنهج لساني بنائي محض وكرد فعل ضد القائلين بالنحو النظري (المتصور في الأذهان فقط). ورد فعلة هذا انطلق فيه من معطيات التجربة الفعلية التي تبين أن أجزاء الكلام لا تنتظم في اللغة بالصدفة ولا بالاعتباط وإنما بالاتساق مع الأجزاء الأخرى التي تندرج فيها وفي أوضاع بعينها دون أوضاع أخرى وهي ملاحظة قديمة جدا لكنها لم تؤسس كمنهج قائم بذاته إلاّ منذ بلومفيلد وقد تأثر فيها بما كان يشاهد من تعدد اللغات في أمريكا كما تأثر بآراء بيهفيور ونظريته السلوكية التي تجعل ردود الفعل اللسانية كغيرها من الردود تخضع القانون الإثارة. هناك منبة (إثارة) تؤدي إلى الاستجابة برد الفعل. فالكلام هو الآخر مبني على الإثارةstimulus والرد (في نوع من العطاء والأخذ للفعل المحرك وفعل الاستجابة من السامع والرسالة الكلامية ينحصر معناها في هذا التبادل بجملة بين المنبه والمجيب، وما الكلام إلاّ تحريك للمعنى وللسامع وارتداد منهما نحو اللفظ والمتكلم. فالأمر يتعلق إذا بوصف أجزاء الكلام التي تحرك وتسبب الإثارة والأجزاء التي تنبه ولا تقتضي الجواب. وهذا يستوجب الانطلاق من مدونة تجمع أصنافا من الكلام في أحوالها ومقاماتها المختلفة لاكتشاف أي الأجزاء يحرك الأجزاء الأخرى، وأيهما لا يحركها عند التركيب، فالعناصر التي يؤدي وجودها بجوار عنصر آخر إلى تغيير البنية يسمى التوزيع (مثل ما تؤدي كيفية توزيع الأوراق في اللعب إلى تغيير اللعبة والنتيجة). فالعناصر التي تحيط بالمنبه وتجعل لدعمه أو لإبطال مفعول البنية هي التي تشكل مادة التوزيع.

ج- المدرسة التوليدية التحويلية:(Transformational-Generative)

والنَّحو التَّوليدي هو نظرية لسانية وضعها تشومسكي، ومعه علماء اللِّسانيات في المعهد التكنولوجي بماساشوسيت) الولايات المتحدة (فيما بين 1960م و1965م بانتقاد النَّموذج التَّوزيعي والنَّموذج البنيوي؛ في مقوماتهما الوضعية المُباشرة، باعتبار أنَّ هذا التَّصور لا يصف إلاّ الجمل المُنجزة بالفعل، ولا يمكنه أن يفسر عددًا كبيرًا من المُعطيات اللِّسانيَّة؛ مثل: الالتباس، والأجزاء غير المُتَّصلة ببعضها البعض؛ فوضع هذه النَّظرية لتكون قادرةً على تفسير ظاهرة الإبداع لدى المُتكلِّمِ، وقدرته على إنشاء جمل لم يسبق أن وُجدت أو فُهمت على ذلك الوجه الجديد5، والنحو يتمثَّل في مجموع المحصول اللِّساني الذي تراكم في ذهن المُتكلم باللغة يعني الكفاءة (competence) اللِّسانية، والاستعمال الخاص الذي

ينجزه المتكلم في حال من الأحوال الخاصة عند التخاطب والذي يرجع إلى القدرة (performance) الكلامية.

والنحو يتألف من ثلاثة أجزاء أو مقومات[3]:

•مقوم تركيبي: ويعني نظام القواعد التي تحدد الجملة المسموح بها في تلك اللغة.

•مقوم دلالي: ويتألف من نظام القواعد التي بها يتم تفسير الجملة المُولَّدة من التَّراكيب النحويَّة.

•مقوم صوتي وحرفي: يعني نظام القواعد التي تنشئ كلامًا مُقطَّعًا من الأصوات في جمل مُولَّدة من التركيب النحوي.

• والشبكة النحوية :(**composante**) يعني البنية النحوية، وهي مكونة من قسمين كبيرين: الأصل: الذي يُحدِّد البنيات الأصلية.4

والتحويلات :التي تُمكِّن من الانتقال من البنية العميقة المُتولَّدة عن الأصل إلى البنية الظاهرة التي تتجلى في الصيغة الصوتية، وتصبح بعد ذلك جُملاً مُنجزة بالفعل5

ثانيا: ومفهوم النظرية التوليدية التحويلية:

"تحويل جملة إلي أخرى أو تركيب إلى آخر، والجملة المحولة عنها هي ما يعرف بالجملة الأصل - البنية العميقة - والقواعد التي تتحكم في تحويل الأصل هي" القواعد التحويلية"، وهي قواعد تحذف بعض عناصر البنية العميقة أو تنقلها من موقع إلى موقع آخر، أو تحولها إلي عناصر مختلفة، أو تضيف إليها عناصر جديدة وإحدى وظائفها الأساسية تحويل البنية العميقة الافتراضية التي تحتوي علي معنى الجملة الأساسي إلي البنية السطحية الملموسة التي تجسد بناء الجملة وصيغتها النهائية6

***أهم أسس النظرية التحويلية**:

1-التفريق بين الكفاية والأداء: فالكفاية: قدرة ابن اللغة على فهم تراكيب لغته وقواعدها وقدرته من الناحية النظرية، على أن يُركِّب ويفهم عددًا غير محدودٍ من الجُمل، ويُدرك الصَّواب منها أو الخطأ، وأمَّا الأداء: فهو الأداء اللُّغوي الفعلي لفظًا أو كتابة.

2-التَّمييز بين البنية العميقة والبنية السَّطحيَّة[7]، نجد صدى لذلك عند سيبويه.

3- اعتبار الجملة الوحدة اللُّغوية الأساسية.

4- القواعد التحويلية ينجم عند اتِّباعها جمل أصولية لا غير، كما تُحدد كل الجمل المُحتملَة في اللغة [8]، . والجمل الأصولية كانت شغل سيبويه الشاغل في كتابه.[9]

5- الإدراك اللغوي والقدرة اللغوية: وهي صفات إنسانية تكمن في النَّوع البشري وليست مُكتسبة، وهذا يتَّفق فيه سيبويه وغيره من النحاة العرب مع تشومسكي.

وتنقسم القواعد التحويلية إلى قسمين:[10]

•اختيارية: نحو: تحويل المبني للمعلوم إلى المبني للمجهول.

•إجبارية: نحو: وضع الحركات على نهاية الكلمات المعربة في اللغة العربية [11].

الهوامش

1. شفيقة علوي، محاضرات في المدارس اللسانية المعاصرة، ص 16 - 19. بتصرّف.
2. . السعيد شنوقة، مدخل إلى المدارس اللسانية، ص 67 - 87. بتصرّف.
3. لمدارس اللسانية في التراث العربي وفي الدراسات الحديثة، لمحمد الصغير بناني (ص76).
4. . المرجع السابق.
5. المدارس اللسانية في التراث العربي، لمحمد الصغير بناني،(ص 77).
6. المرجع نفسه، (ص 80).
7. المرجع نفسه، (ص 81).
8. المرجع نفسه، (ص 80-81).
9. ينظر: من الأنماط التحويلية في النحو العربي، لمحمد حماسة عبد اللطيف (ص 13)، وقواعد تحويلية باللغة العربية، لمحمد على الخولي، (ص 22).
10. ينظر: محاضرات في علم اللغة الحديث163 ، 164
11. ينظر: الألسنية التوليدية التحويلية (ص9).